قال المؤلف رحمه الله تعالى وغفر له وللشارح والسامعين :

الأصل الرابع : بيان العلم والعلماء والفقه والفقهاء وبيان من تشبه بهم وليس منهم ، وقد بيَّن الله تعالى هذا الأصل في أول سورة البقرة من قوله : {يَا بَنِي إِسْرائيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُم} [البقرة:٤٠] إلى قوله قبل ذكر إبراهيم عليه السلام: {يَا بَنِي إِسْرائيل }[البقرة:١٢٢] الآية، ويزيده وضوحاً ما صرحت به السنة في هذا من الكلام الكثير البين الواضح للعامي البليد، ثم صار هذا أغرب الأشياء، وصار العلم والفقه هو البدع والضلالات، وخيار ما عندهم لبس الحق بالباطل، وصار العلم الذي فرضه الله تعالى على الخلق ومدحه لا يتفوه به إلا زنديق أو مجنون، وصار من أنكره وعاداه وصنَّف في التحذير منه والنهي عنه هو الفقيه العالم)).

****

قال المصنف رحمه الله : ((**الأصل الرابع : بيان العلم والعلماء والفقه والفقهاء وبيان من تشبه بهم وليس**

منهم))؛ هذا الأصل عقده المصنِّف رحمه الله وأورده هنا لأنه أصلٌ التبس على كثير من الناس واختلط عليهم دعاة الحق من دعاة الباطل ، وأصبح الناس يأخذون عن كل متكلم ويبتغون كلَّ ناعق ، ولا يميزون بين أهل الحق والباطل بل ليس عندهم آلة يميزون بها بين من هو داعية للحق أو داعية للهوى والباطل ، ورب العالمين أرشد في كتابه السائلين والمستفتين والمتعلمين؛ أرشدهم إلى الأخذ عن أهل الذكر: {فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} [النحل:٤٣] . ليس الأخذ عن كل أحد وإنما الأخذ عن أهل الذكر وهم أهل العلم والفقه بدين الله تبارك وتعالى. وعندما يختلط هذا الأمر على الناس يصبح أخذهم عن كل أحد وتلقيهم عن كل متحدث ، وهذا من أعظم أسباب الانحراف عن دين الله تبارك وتعالى ، وقد صحَّ في الحديث عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال: ((إن أخوف ما أخاف على أمتي الأئمّة المضلين)) ، وأئمة الضلال هم من يلبسون لبوس العلم ويتزيؤون بزي العلماء ولكنهم ينشرون البدع في الأمة والخرافات والأهواء والضلالات وما لا أصل له في دين الله ، ويلبسون الحق بالباطل ، ويكتمون الحق ويحجبونه عن الناس ؛ فتنتشر على أيديهم البدع وتنتشر على أيديهم الخرافات ، ولا يزال أتباعهم يحسِّنون بهم الظن ، ويظنون أنهم يبينون دين الله عز وجل ، وتراه يؤيد باطله إما بحديث مكذوب، أو آية يحرفها عن معناها، أو قصة يخترعها، أو رؤية منامية يدّعيها، أو تجربة يزعمها، أو نحو ذلك من المسالك المتبعة عند هؤلاء في نشر ما عندهم من خرافة وباطل. ولضعف البصيرة في الناس والفهم والدراية يروج عليهم كلام أمثال هؤلاء .

ولهذا عقد المصنف رحمه الله هذا الأصل نصحاً للناس ، وبياناً لهذا الأمر ؛ أن يُعرف الفقه والفقهاء والعلم والعلماء . العلم والفقه أي النافع الذي أمر الله تبارك وتعالى به، فليس كل كلام يُلقى هو فقهٌ، وليس كل بيان يبيّن هو فقه، والعلم والفقه الذي مدح الله عز وجل أهله ورغَّب النبي صلى الله عليه و سلم في تحصيله وتلقيه هو العلم الشرعي المستمد من كتاب الله عز وجل وسنة نبيه صلى الله عليه و سلم، «العلم قال الله قال رسوله» هذا هو العلم على ضوء فهم الصحابة الكرام ومن اتبعهم بإحسان؛ هذا هو العلم الذي امتدحه الله وهذا هو ميراث الأنبياء ، كما قال عليه الصلاة والسلام: ((فإن الأنبياء لم يورّثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورّثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر)) ، وهذا هو العلم الذي شهد عليه الصلاة والسلام لصاحبه بالخيرية ((من يرد الله به خيراً يفقه في الدّين)) ، ((خيركم من تعلّم القرآن وعلّمه))، ((من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهّل الله له به طريقاً إلى الجنة)) ، ((وإنّ الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع)).كل الأحاديث التي وردتْ في الترغيب في العلم والحثّ عليه فالمراد بها العلم الشّرعي. والمراد بالفقه الفقه الذي يستمد من كتاب الله عزّ وجلّ، سواء أريد بالفقه الفقه الأكبر الذي هو العقيدة وأصول الدين ، أو الفقه الأصغر الذي هو الأحكام والفروع، فهذه كلّها فقه في دين الله تبارك وتعالى. ولا يكون هذا الفقه صالحاً سديداً إلاّ إذا كان مستمداً من كتاب الله عزّ وجلّ وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام على ضوء فهم السلف الصالح رحمهم الله.

وعند ما لا تميّز هذه الحقيقة تُخلط أمور في هذا الباب وتسمى علماً فتُضرّ بالناس غاية الضّرر، ومن أعظم ذلك خطراً على الناس وأدهاه عليهم علم الكلام الذي بنى عليه أربابه فهم دين الله عزّ وجلّ بمعزل عن كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه و سلم ، وصار الواحد منهم في تقريره لأمور دينه وأمور الاعتقاد يذكر عقليات وتصورات وفلسفات ما أنزل الله بها من سلطان، فإذا أراد أن يقرر عقيدة قال: بما أن كذا يكون كذا ، ولو كان كذا لكان كذا ؛ فيمضي بهذا الأسلوب في تقرير الاعتقاد وبين يديه كتاب الله ناطق بالحق وبين يديه سنة رسول الله صلى الله عليه و سلم شاهدة بالحقّ ودالة عليه فيُعرض عنهما، ثم يقحم عقله القاصر وتصوراته الضعيفة! فيبدأ يقرر في الاعتقاد ما لا أساس له ولا أصل عليه، خوض في الله وفي دين الله وفي شرع الله بلا علم؛ وهذا من أعظم المحرمات وأكبر الآثام { وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ}[الأعراف:٣٣]، {وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا} [الإسراء:٣٦] .

وبات علم التوحيد الذي هو أعظم العلوم وأجلها يسمى ـ بسبب تعلق هؤلاء بعلم الكلام ـ يسمى «علم الكلام» يسمى علم التوحيد عندهم أو علم العقيدة يسمى علم الكلام، ويبدأ هؤلاء في تقرير الاعتقاد على الكلام الباطل والخوض في دين الله عز وجل بالعقليات والآراء ، وقد قال ابن أبي العزّ رحمه الله في شرحه للعقيدة الطحاوية: «كيف يرام الوصول إلى علم الأصول بغير ما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام؟!» أي أنّ هذا محال لا يمكن، لا يمكن للإنسان أن يصل إلى الأصول الصحيحة والعقيدة السليمة دون أن يتلقى ذلك عن رسول الله عليه الصلاة والسلام، ولا يمكن أيضاً أن يعرف العبادة الصّحيحة إلا بالتلقي عن الرسول عليه الصلاة والسلام؛ ولهذا قال العلماء: كلّ طريق إلى الله سبحانه وتعالى مسدود إلا من طريق الرسول عليه الصلاة والسلام، لا يمكن للإنسان أن يصل إلى هدى وإلى حقّ وإلى علم نافع وإلى سديد قول وصالح عمل إلا باتباع الرسول صلى الله عليه و سلم، وجعله أسوة وقدوة في عقيدته وعبادته وعمله {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ}[الأحزاب:٢١].

ومن فارق ما جاء به الرسول صلى الله عليه و سلم ضلّ، ولهذا كان شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كثيراً ما يقول: «من فارق الدّليل ضلّ السبيل، ولا دليل إلاّ ما جاء به الرسول صلى الله عليه و سلم » ويقول رحمه الله: «كلٌّ يستدل لقوله لا به إلا الله ورسوله»، كلام الله وكلام رسوله عليه الصلاة والسلام هو الحجّة، وكلام غير الله وكلام غير الرسول عليه الصلاة والسلام ليس حجّةً، وإنّما تطلب له الحجّة إن وجدت في كتاب الله أو سنة رسوله عليه الصلاة والسلام، فإن وجدت وإلاّ ردّ عليه قوله، وهذا معنى قول مالك رحمه الله: «كلٌّ يؤخذ من قوله ويترك إلاّ صاحب هذا القبر» يعني رسول الله صلى الله عليه و سلم.

وكما يشير المصنّف رحمه الله هنا ؛ المصيبة على الناس في هذا الباب عظمت لأنهم أصبحوا لا يميزون بين دعاة الحقّ وأدعياء الباطل، بل أصبح بعض العوام يميل في تلقيه وفي استفتائه إلى من يراه يفتيه بما يريد أو

من يراه يفتيه على هواه، وتجده يتنقل بين من يفتون واحداً تلو الآخر إلى أن يقع على شخص يرخص له فيما يريد ، ليس منشوده الحق ومطلوبه دين الله عزّ وجلّ، وإنما منشوده الأمر الذي اتجه للسؤال عنه أو طلب الرخصة فيه. وهذه من المصائب العظيمة، أصبح في الناس من لا يميز بين الفقه والفقهاء والعلم والعلماء، وأصبح الداعية للبدعة الذي لا يُسمع منه تقرير الاعتقاد الصحيح والدين القويم على ضوء الدليل المستمد من كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام يُعد عند بعض الناس عالماً وفقيهاً، وأصبح أيضاً عكس ذلك ؛ العالم المنضبط بضوابط الكتاب والسنة المتقيّد بما جاء في كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه و سلم يُرمى بأوصاف ينفَّر بها الناس عنه ، والأوصاف التي يرمون بها العلماء الذين هم على السنة وعلى التلقي من كتاب الله عز وجل كثيرة جداً في القديم والحديث.

قال: ((**بيان العلم والعلماء، والفقه والفقهاء، وبيان من تشبّه بهم وليس منهم**)) يشير ههنا إلى أن في الناس من يشتبه بأهل العلم ويتظاهر بالعلم وهو في الواقع يدسّ البدع وينشر الباطل والخرافة بين الناس، لا ينشر دين الله عز وجلّ، وإنما ينشر خرافات باطلة وبدعًا ضالة ؛ هذا الذي عنده وهذه بضاعته ، لكنه يتظاهر بمظهر العلم والفقه والبصيرة في دين الله فيغر العوام ويخدع الجهال.

قال: ((**وقد بين الله عز وجل هذا الأصل في أول سورة البقرة من قوله** {يَا بَنِي إِسْرائيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُم} **إلى قوله:** {يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ})) مشيراً إلى أنّ في هذا السياق بياناً لهذه الحقيقة ، وإيضاحاً إلى أن العالم الحق شأنه ذكر نعمة الله عليه وفضله عليه وشكره لنعمة الله تبارك وتعالى ، وعدم لبسه الحقّ بالباطل، وعدم كتمانه للحق ، ومحافظته على ما أُمر من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، والبعد عن أن يكون شأنه شأن من يدعو إلى الشيء ولا يعمله {أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ }[البقرة:٤٤] ؛ فهذا السياق المبارك عندما يتأمله المسلم وطالب العلم يجد فيه ضوابط يميز بها بين العلماء والأدعياء، فالعلماء لهم صفاتهم، والأدعياء لهم صفاتهم، وكلّها مبينة في هذا السياق وفي مواضع أيضاً أخرى من كتاب الله عز وجل تكشف هذا الأمر وتجلي هذه الحقيقة.

قال: ((**ويزيده وضوحاً**)) يزيد هذا الأمر وضوحاً وبياناً ((**ما صرّحتْ به السنة في هذا الكلام الكثير البين الواضح للعام البليد**)) أي أنّ السنة جاءت ببيان العلماء وصفات أهل العلم، ولو وقف طالب العلم على بعض الكتب المصنّفة في هذا الباب –وبخاصة كتاب «جامع بيان العلم وفضله» لابن عبد البر– لوجد فيه من السنة ذكر فضل العلم وعلامات أهله وصفاتهم في ضوء سنة النبي الكريم عليه الصلاة والسلام ، فهو أمر بُيِّن في الكتاب والسنة غاية البيان، بُيِّن كما قال المصنف بياناً واضحاً للعامي البليد، ذُكر في القرآن والسنة نصوص توضِّح من هم العلماء واضحاً للعامي البليد ، لكن المعرض والمتبع لهواه ونحو هؤلاء تختلط

عليهم الأمور وتلتبس إما بسبب الجهل أو بسبب اتباع الأهواء.

قال: ((**ثم صار هذا أغرب الأشياء**)) صار هذا الأمر أغرب الأشياء ، يعني معرفة العلماء وعلاماتهم والفقهاء وعلاماتهم صار هذا أغرب الأشياء ، يعني أمره صار غريباً بين الناس لا يكاد يعرفه إلا القلائل منهم، والأمر الغريب: الذي لا يعرفه إلا القلة من الناس.

((**وصار العلم والفقه هو البدع والضلالات**)) وصار العلم أي العلم الصحيح المستمد من الكتاب والسنة هو البدع والضلالات، وأصبح في الناس كثيرون من ينكرون السنن ويسمونها بالبدعة، وينكرون العقيدة الصحيحة المستمدة من الكتاب والسنة ويصفونها بالضّلال، وينكرون العبادات الثابتة عن الرسول عليه الصلاة والسلام ويصفونها بالباطل؛ هذا معنى قوله رحمه الله ((وصار العلم والفقه هو البدع والضلالات)) أي أنّ هؤلاء أصبحوا يصفون العلم الصحيح والفقه الصحيح بأنه بدعة وضلالة. وما هو العلم؟! العلم هو البدع التي يمارسونها ما أنزل الله تبارك وتعالى من سلطان.

((**وخيار ما عندهم**)) يعني أفضل شيء عند هؤلاء ((**لبس الحق بالباطل**)) ولبس الحق بالباطل هذا أمر لا خير فيه ، أي خيرية في أن يلبس الحق بالباطل وتُخلط على الناس أمور وتغيَّب عنهم الحقيقة الناصعة المأخوذة من الكتاب والسنة!! فإذا كان هذا خيار ما عندهم لبس الحق بالباطل فمعنى ذلك أن هؤلاء في ضياع تام وإعراضٍ تام عن كتاب الله عز وجلّ وسنة رسوله صلوات الله وسلامه عليه.

قال : ((**وصار العلم الذي فرضه الله تعالى على الخلق ومدحه لا يتفوه به إلا زنديقٌ أو مجنون**)) ؛ قوله: «**لا يتفوه به إلا زنديق أو مجنون**» أي بزعم هؤلاء ؛ فيصفون الذي يتفوّه بالعلم الشّرعي المستمد من كتاب الله عز وجلّ يصفونه بالجنون، وربما وصفوه بالزّندقة. والزّندقة: مروقٌ عن دين الله تبارك وتعالى، فيصفون المتمسّك بدينه بأنه إما به جنون، أو يصفونه بأنه زنديق أو مارق أو نحو ذلك من الأوصاف ، أسوةً بالمشركين الذين وصفوا النبي عليه الصلاة والسلام بالساحر والكاهن والمجنون والمفتري إلى غير ذلك من الأوصاف التي لقبوه بها، ولُقِّب بنظائرها أتباعه المتمسكين بهديه السائرين على نهجه صلوات الله وسلامه عليه.

قال: ((**وصار من أنكره وعاداه وصنّف في التحذير منه والنّهي عنه هو الفقيه العالم**)) ؛ «وصار من أنكره وعاداه» الضمير هنا يعود إلى العلم والفقه الصحيح المستمد من الكتاب والسنة، صار من أنكر العلم الصحيح وعادى الفقه الصحيح المستمد من الكتاب والسنة وصنّف في التحذير منه – أي صنّف في التحذير من السنن الصحيحة والفقه الصحيح والعلم الصحيح– وصنف في التحذير منه والنهي عنه هو الفقيه العالم !! وهذا موجود ، تُصنيف كتب في رد السنن والإشادة بالبدع وإحياء الضلالات ويوصف أصحابها بالعلماء ويلقبون بالفقهاء، وربما قيل في حقه إمام، وربما قيل إمام الأئمة من قِبل أتباعه من الغوغاء

والجّهال ؛ وهو ليس عنده إلا نشر الخرافة ، إما نشر للقبورية والتعلق بالقبور والكذب على رسول الله عليه الصلاة والسلام ، أو نشر الأحاديث الواهية الضعيفة ، أو تحريف الآيات عن معانيها، أو حكاية القصص وذكر الرؤى والمنامات ، ويكون الكتاب كله مبنياً على هذا الأمر ولا ترى فيه ((لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)) ، ((إنّ شرار الخلق عند الله الذين يتخذون القبور مساجد)) هذه الأحاديث الصّحيحة لا تراها، ترى إما آيةً يحرفونها عن معناها ويصرفونها عن مدلولها مثل استشهاد هؤلاء وكلّ من كتب منهم في هذا الباب بقول الله تعالى {قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا} [الكهف:٢١] ؛ هذا أمر حكاه الله عز وجل عن أهل الغلبة وهم كفار كما يدل على ذلك سياق الآيات في سورة الكهف فيستدلون به لفعل هؤلاء ، ويتركون ما قاله النبيّ صلى الله عليه و سلم قبل أن يموت بلحظات: ((لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)) . ولا يصح أن نقول هذا شرع من قبلنا وشرع من قبلنا جاء بنسخه ، لا يصح أن نقول هذا الكلام لماذا ؟ لأنه لو كان شرع لمن قبلنا أيصح أن يقول عليه الصلاة والسلام: ((لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد))؟ أيصح أن يقول ذلك يلعنهم على أمر هو شرع عندهم؟ هذا لا يقال، فاتخاذ القبور مساجد ليس شرعاً لمن قبلنا، بل هو باطل في أديان جميع الأنبياء، والآية ذكرٌ لحال أهل الغلبة من غير المسلمين { إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ} [الكهف:٢٠] . السّياق واضح وصف لحال غير المسلمين، فيستدلون بعمل أهل الغلبة في مساق ليس مساق مدح بل مساق ذم ويتركون حديث رسول الله صلى الله عليه و سلم !!

العامي المسكين إذا قال له واحد من هؤلاء: الله يقول { قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا} هذا القرآن ناطق باتخاذ القبور مساجد، هذا كتاب الله ناطق، فكيف يقولون إنه لا يجوز؟! العامي مسكين يقول له أيضاً افتح سورة الكهف ويريه الآية في السورة، يقول: كيف يقال إنه هذا حرم؟! العامي ما يدري، ثم يردف هذه الآية التي حرف معناها بحديث يورده للعوام أنّ الرسول صلى الله عليه و سلم قال: ((من اعتقد في حجر نفعه)) مثلاً ، أو أشياء من هذا القبيل يكذبونها ويفترونها، ثم يردف ذلك بقصص، قصة فلان، وقصة فلان، ثم تُجمع في كتاب ويُعدّ علماً ويُعدُّ مؤلفه عالم فقيه، وهو كلّه كذب على الله وكذب على رسوله، وقولٌ على الله بلا علم، وتلفيقٌ وتزويرٌ وكتم للحقّ ولبس للحق بالباطل، وخلط للأمور، ويسمّى الكتاب كتابَ علمٍ، ويسمّى مؤلّفه عالم فقيه ، والذين يكتوون من جمرة هذا الرجل العوام الجهّال، يغترون ويقعون في أنواع من الباطل ؛ هذا مثال، قل في جميع أبواب الدين مثل هذا ، عندما يتصدّر للنّاس دعاة الباطل ودعاة الضّلال فيفسدون في الناس بمثل هذه الطريقة. فالمؤلف رحمه الله وضع هذا الأصل نصحاً للنّاس حتى لا يختلط على عوام المسلمين وعلى المبتدئين وطلبة العلم، لا تختلط عليهم الأمور ويعرفون حقيقة الأمر.

قال رحمه الله تعالى :

((الأصل الخامس: بيان الله سبحانه للأولياء وتفريقه بينهم وبين المتشبهين بهم من أعداء الله المنافقين والفجار، ويكفي في هذا آية آل عمران وهي قوله تعالى: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ } ، وآية في المائدة، وهي قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِ اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ } الآية، وآية في سورة يونس وهي قوله تعالى: {أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ* الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ }. ثم صار الأمر عند أكثر من يدعي العلم وأنه من هداة الخلق وحفاظ الشرع إلى أن الأولياء لابد فيهم من ترك اتباع الرسل، ومن اتبعه فليس منهم، ولابد من ترك الجهاد، فمن جاهد فليس منهم، ولابد من ترك الإيمان والتقوى، فمن تعهد بالإيمان والتقوى فليس منهم، يا ربنا نسألك العفو والعافية إنّك سميع الدّعاء)).

****

قال رحمه الله : ((**الأصل الخامس**)) وهذا أصل عظيم ومفيد جدّاً للمسلم، والنّاس بحاجة ماسة لفهمه والعلم به.

يقول رحمه الله: ((**بيان الله سبحانه لأولياء الله وتفريقه بينهم وبين المتشبّهين بهم من أعداء الله المنافقين والفجّار**)) هذا أصل مهم يجب على المسلم أن يفهمه في ضوء كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام، ولعلّنا نلحظ ـ معاشر الإخوة ـ الطريقة المباركة والنّهج السّديد الذي عليه هذا الإمام في توضيحه للأمور، لما أراد أن يذكر علامة العلماء وأمارة الفقهاء أورد آيات وأشار إلى أحاديث تُعرف بها ومن خلالها علاماتهم، ولما أراد أن يبين علامات الأولياء أولياء الله سبحانه وتعالى أيضاً أورد آيات من كتاب الله عز وجلّ تعرف من خلالها علاماتهم ؛ منبّهاً بذلك أنّ الحق وأهله ودعاته إنّما يُعرفون من جهة دلالة كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه و سلم.

قال: ((**بيان الله سبحانه لأولياء الله ، وتفريقه بينهم وبين المتشبّهين بهم من أعداء الله المنافقين والفجّار**)) ؛ فأولياء الله لهم علامات ذكرتْ في القرآن والسنة، وأولياء الشيطان الذين يدّعون أنّهم أولياء الله أيضاً لهم علامات ذكرت في الكتاب والسنة، وقد صنّف شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله مصنفاً عظيم النفع كبير الفائدة سماه «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» ، وهو كتاب عظيم جداً ذكر فيه ما يميز به بين ولي الله وولي الشيطان ، ومن لم يميز خدعه أولياء الشيطان وغروه وصرفوه عن دين الله تبارك وتعالى.

قال: ((**يكفي في هذا آية في سورة آل عمران وهي قوله تعالى{قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ} [آل عمران:٣١] الآية، وآية في سورة المائدة، وهي قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ**

مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِ اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ } [المائدة:٥٤] ، وآية في سورة يونس وهي قول الله تعالى: {أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ(٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ} [يونس:٦٢-٦٣])) ؛ يقول رحمه الله: يكفي أن تعرف الأولياء حقّاً وصدقاً من خلال هذه الآيات الثلاث فقط؛ ففيها كفاية لك في معرفة من هو الولي، وما هي علاماته.

فالعلامة الأولى: في قوله تعالى {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ} العلامة الأولى: الاتباع؛ اتباع النبيّ صلى الله عليه و سلم، ولقد كان بعض أهل العلم يسمّون هذه الآية «آية المحنة» ؛ أي أن من أراد أن يمتحن نفسه في صدق وقوّة محبّته لرسول الله صلى الله عليه و سلم وقبل ذلك محبّته لربّ العالمين ؛ فلينظر أو ليقِس ذلك على ضوء الاتباع الذي عنده، فإنه كلما كان أعظم اتباعاً وتمسّكاً بهدي الرسول صلى الله عليه و سلم فإنّ هذه أمارة على صدق المحبة، وكلما ضعُف فيه الاتباع فهذا أمارة على ضعفها، فكيف يكون وليّاً وهو لا يتبع الرسول عليه الصلاة والسلام؟!

في بعض البلدان يجلس من يُزعم ويُدَّعي أنه ولي متكئاً على سارية في المسجد وتقام الصلاة ويصلي الناس وهو متكئ ما يصلي معهم! أين الولاية؟ أين الولاية بدون الصلاة؟ أو لا يكون أيضاً في المسجد يكون في الشارع جالساً في مكان وتقام الصلاة وينادى لها ولا يقوم يصلي! ويُدَّعي أنه ولي من أولياء الله! أين الصلاة التي فرضها الله على عباده؟ يقول أحد الأشخاص: مررتُ ببلدٍ ما على مكان وإذا برجل كلّ ما مررت جالس ما يقوم وليس به علّة ، جالس في مكان لا يقوم حتى أوقات الصلوات! فسألتُ عنه فقلت: من هذا؟ قالوا: سبحان الله ما تعرفه! هذا وليٌّ من أولياء الله، كلّ الناس يشهدون له بالولاية! هذا نذر أن لا يقوم من هذا المكان أبداً ، فقط يجلس في هذا المكان يصلي على النبيّ صلى الله عليه و سلم . الصلاة المفروضة التي افترضها الله على عباده وأمر بها ودعا إلى إقامتها في المساجد تُترك ، ويجلس في هذا المكان لا يقوم منه! أين الولاية بدون الاتباع؟! يغتر العوام عندما تؤتى لهم بمثل هذه الحكايات، يغتر العوام ويظن فعلاً أن هذا من أولياء الله. فولي الله المتبع ، علامته الاتباع ، وأعظم ما يكون فيه فعل الفرائض ، إذا ضيّع الفرائض ليس من أولياء الله ، لا تحتاج هذه إلى مفاصلة ، واضحة ؛ من ضيّع الفرائض فهو لما سواها أضيع، فالولاية لابد فيها من فعل الفرائض.

ولهذا قال العلماء: الولاية درجتان، أولياء الله على درجتين، بُيِّنت الدّرجتان في قوله عليه الصلاة والسلام عن الله تعالى في الحديث القدسي: ((من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب، وما تقرّب إليّ عبدي بشيء أحبَّ إليَّ ممّا افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرّب إلي بالنّوافل حتّى أحبه)) ، فالأولياء على درجتين:

١. درجة فعل الفرائض؛ الذي يحافظ على الفرائض ويترك المحرمات هذا من أولياء الله ، وهي درجة في الولاية.

٢. أعلى منها درجةً : من يفعل الفرائض ويترك المحرمات وينافس في فعل الرغائب والمستحبات. وهذا معنى قوله: ((ولا يزال عبدي يتقرّب إلي بالنّوافل حتّى أحبه، فإذا أحببتُه كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، وقدمه التي يمشي عليها. ولئن سألني لأعطينّه، ولأن استعاذني لأعيذنه))

هذه علامته يفعل الفرائض. أما شخص يجلس ولا يصلي، ثم يقول من حوله: هذا ما تعرفه! هذا ولي من أولياء الله، ثم يقولون أيضاً: لو كان عندك مشكلة اجلس عنده بدون ما تكلمه وهو يعرف مشكلتك، وهو يلقي في قلبك الدّواء لها، هذا ولي! العوام مساكين يُخدعون بمثل هذا الكلام ، ثم إذا قيل للعوام: فلان جرّب وفلان جرّب وفلانة جرّبت ومثل هذه السوالف لا تسأل عن ركضهم على مثل هذا زرافات ووحداناً، وهذا الضياع . وأصبحتْ المقاييس في الولاية مثل هذه المقاييس الفاسدة، أما المقاييس التي في الكتاب والسنة لا تجدهم يعرّجون عليها ولا يقفون عندها.

فإذاً علامة الولي الاتباع والاقتداء بالرسول عليه الصلاة والسلام وبسنته، ومن أعظم ما يكون في ذلك الصلاة. كان بعض المتقدمين إذا أراد أن يذهب إلى مكان ليتلقّى العلم عن شخص يذهب وينظر في صلاته ؛ إذا وجده من أهلها والمحافظين عليها اطمأنّ لعلمه ، وإلا إن كان مضيّعاً للصلاة فهو لما سواها أضيع، ولا حظَّ في الإسلام لمن ضيّع الصّلاة، قال بعض السلف: «من أراد أن يعرف وزن الإسلام عنده فلينظر إلى وزن الصلاة» ؛ الصلاة ميزان لإسلام الشخص ، إذا كان شخص لا يصلي ولا يشهد الصلاة مع الجماعة هذا ولي من أولياء الشيطان، يجلس في قارعة الطريق وليس به علة ولم يمنعه مرض ولم يمنعه عذر إلاّ مثل هذه الدعاوى الباطلة هذا ليس من أولياء الله. والنبيّ صلى الله عليه و سلم في آخر حياته في مرضه كشف السِّتر ورأى الصحابة صفوفاً يؤمّهم أبو بكر الصّديق ﷺ فتهلّل وجهه فرحاً عليه الصلاة والسلام من هذا المنظر العظيم ؛ تهلل وجهه والناس يراهم صفوف يصلون في المسجد خلف خير أصحابه أبو بكر ﷺ ، هذه الولاية، الولاية ، الولاية في الصلاة في عبادة الله واتباع الرسول عليه الصلاة والسلام هذه علامة واضحة بُيّنتْ في القرآن لا تحتاج إلى بيان، لكن مع ذلك الأمر التبس على كثير من العوام والجهّال، وأصبح بعض العوام لا ينظر إلى هذه العلامة ليقيس وإنما ينظر إلى طول العمامة ، لا ينظر إلى هذه العلامة وإنما ينظر في معرفة الولاية إلى طول العمامة أو الزي أو الشكل، وأصبح بعضهم الولاية نوع من اللباس ونوع من الزي معين ونوع من الحركات معينة تُفعل إذا وُجدت أصبحت مقياساً ، {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ } هذه لا تقاس بها، هذا الميزان الواضح لا يقاس به ولا يميز من خلاله من هم أولياء الله.

ثم كذلك الآية الثانية {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ } [المائدة:٥٤] ذكر لهم أربع علامات:

١. أذلّة على المؤمنين ؛ يعني في قلوبهم رحمة للمؤمنين ، ومحبّة للخير لهم ، ونصح ، ودعاء ، وتعاون معهم على الخير.

٢. أعزّة على الكافرين ؛ قلوبهم فيها عزّة ومنعة، وفيها أيضاً بغضٌ وكراهية للكفّار وأعداء دين الله تبارك وتعالى.

٣ . وفيهم أيضاً الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله سبحانه وتعالى ونصرة دينه.

٤. وفيهم أنهم لا يخافون في الله لومة لائم في بيان الحقّ وإيضاحه والدعوة إليه ونشره.

مثل هذه إذا وجدت هذه علامات على أن للإنسان من أولياء الله تبارك وتعالى.

ثم ختم بعلامة أخيرة في قوله تبارك وتعالى: {أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ }[يونس:٦٢] . ثم ذكر علامتهم تبارك وتعالى قال: {الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ} [يونس:٦٣] ؛ العلماء رحمهم الله يقولون: إذا جُمت بين الإيمان والتقوى في آية واحدة أو في نص واحد ؛ يكون الإيمان يتناول العقائد الصحيحة وفعل الأوامر، والتقوى: البعد عن العقائد الزّائفة الباطلة وترك النواهي، فالإيمان: اعتقاد الأمر الصحيح والعمل بالطاعات التي دل عليها الكتاب والسنة، والتّقوى: البعد عن العقائد الباطلة واتقاؤها ، وأيضاً اتقاء المحرمات وما نهى الله عنه تبارك وتعالى ويأتي في مقدّمة ذلك الشرك بالله.

فذكر لهم علامتان: الإيمان والتقوى؛ ولهذا من كان مؤمناً تقيّاً كان لله وليّاً، والولاية تكون بالإيمان والتقوى ؛ هذا أمر واضح في كتاب الله، وأصبح من يفعل نقيض هذين الأمرين تُدَّعى له الولاية!

في باب فعل الأوامر، تجد في أقوامٍ علامتهم عند أصحابهم ترك الأوامر ويُعرفون عند أصحابهم بماذا ؟ بالأولياء ، تجده لا يصلي تجده أيضاً لا يطوف ويعلن ذلك يقول: الأولياء لا يطوفون بالبيت، البيت هو الذي يطوف بهم ، وهذا ليس كلاماً يقال، هذا كلام موجود في كتبهم ويُنشر، يقول: الولي هو الذي يطوف به البيت، ليس هو الذي يذهب إلى البيت يطوف به. وقد حُدّثتُ عن شخص أنه جاء ووصل إلى مكّة ووقف ما طاف وقال: لا، الأولياء هم الذين يطوف بهم البيت!!. وإمام الأولياء عليه الصلاة والسلام كم مرّة طاف بالبيت؟ حجّ واعتمر أربع مرّات، طاف بالبيت طوافاً متكرّراً، وهو إمام الأولياء عليه الصلاة والسلام ، ثم يدَّعي هؤلاء أنّ الولي لا يطوف بالبيت وأحقيته ومكانته أن البيت بطوف به ، حتى إنه في أحد كتب الفقه عُقدت مسألة في كتاب الصلاة مبنية على خرافة هؤلاء، عُقدت مسألة في كتاب الصلاة: إذا ذهبت الكعبة تطوف بالأولياء إلى أين يصلي الناس؟؟ هذه مسألة فقهية!! قال صاحب الكتاب: اختلف أهل العلم في هذه المسألة على قولين: قال بعض العلماء يصلُّون إلى الكعبة باعتبار الأصل وباعتبار أن الناس لا يستطيعون معرفة أين ذهبت الكعبة ، إذا حضر وقت الصلاة وفُرض أن الكعبة ذهبت إلى الهند إيش يعلم الناس أن الكعبة في الهند أو في إفريقيا ، فقال: يصلون إلى مكان الكعبة باعتبار الأصل ولعدم التمكن ؛ هذا قول . القول الآخر: لا، لابد أن يتحرّى الناس أين ذهبت الكعبة ويستقبلونها. هذا بُحث في

أحد الكتب!! وفي كتب تروّج عند العوام وفيها مثل هذه الخرافات وتنشر على أنها علامة للأولياء، لا صلاة ولا طواف ولا عبادة ويُدّعي فيه أنه وليٌّ من أولياء الله!! وهو وليٌّ للشيطان بلا شك ولاريب ، إي واللهِ وليٌّ للشيطان ليس وليّاً للرحمن ، {وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ}[الأنفال:٣٤]، لا تكون الولاية بمثل هذا الضياع والباطل.

وأيضاً جانب التقوى لا تراها فيه، وأنا أتحدّث عن غلاة هؤلاء ، لا تراها فيهم، تراه يمارس بعض المحرمات باسم الولاية، يمارس بعض المحرمات الصريحة الواضحة البينة كقوله تعالى: {وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا} [الإسراء:٣٢] . يمارسه باسم الولاية. وقد قرأت في بعض الكتب القديمة لهؤلاء وحدّثني بعض المهتدين من هؤلاء بما أذكره لكم الآن، أن المريد يأتي إلى شيخ الطريقة المزعوم أنه ولي، يأتي المريد إليه في ليلة زواجه، ويأتي بزوجته بكراً إلى شيخه ويتوسّل إليه ويتذلّل بين يديه أن يتكرّم بافتضاض بكارتها ، ثم يخلو بها ويفتض بكارتها من أجل البركة ، ثم تخرج من عنده ويقبّل هذا المريد قدمي شيخه شكراً له على هذا الإحسان، وربما أعطاه أيضاً جزيل مالٍ على إحسانه له. هذا يمارس باسم الولاية، زنا والعياذ بالله وفواحش وأمور منكرة تمارس باسم الولاية! هؤلاء أولياء الشيطان . إي والله . ليسوا أولياء الله {أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ} [يونس:٦٢ – ٦٣] ، «من كان مؤمناً تقيّاً كان لله وليّاً»، فلما اختلطت الأمور على الناس أصبحت هذه العلامة غير واضحة عندهم، وأصبحت العلامة عندهم خرافات بُثّت وضلالات نُشرتْ بين الناس وأصبحتْ هي المقياس.

ولهذا قال المصنف: ((**ثم صار الأمر عند أكثر من يدعي العلم وأنه من أهل العلم وأنه من هداة الخلق وحفاظ الشرع إلى أن الأولياء لا بد فيهم من ترك اتباع الرسول**)) ؛ يعني أصبحت العلامة للولي ما هي؟ ترك الاتباع، ترك الدين، ترك الشرع، هذه العلامة ، مثل ما مثّلتُ لكم ببعض الأمثلة.

((**ومن تبعهم فليس منهم**)) يعني من تبع الأنبياء وسار على منهاجهم ليس منهم ، لأنه لا يكون منهم إلا بترك الاتباع هكذا فهمت الأمور .

((**ولا بد من ترك الجهاد، فمن جاهد فليس منهم، ولا بد من ترك الإيمان والتقوى فمن تعهد بالإيمان والتقوى فليس منهم**)) هذه المقاييس التي في الآية تركها هي الولاية أصبحت ، والعمل بها ليس من الولاية في شيء، قُلبت الأمور؛ ولهذا دعا المصنّف بهذه الدّعوة قال: ((**يا ربّنا نسألك العفو والعافية إنك سميع الدعاء**)).

قال رحمه الله تعالى :

الأصل السادس: ردّ الشبهة التي وضعها الشيطان في ترك القرآن والسنة ، واتباع الآراء والأهواء المتفرقة المختلفة؛ وهي: أنّ القرآن والسنة لا يعرفهما إلا المجتهد المطلق. والمجتهد هو الموصوف بكذا

وكذا أوصافاً لعلها لا توجد تامة في أبي بكر وعمر . فإن لم يكن الإنسان كذلك فليُعرِض عنهما فرضاً حتماً لاشك ولا إشكال فيه، ومن طلب الهدى منهما فهو إما زنديق وإما مجنون؛ لأجل صعوبة فهمها. فسبحان الله وبحمده! كم بيّن الله سبحانه شرعاً وقدراً خلقاً وأمراً في ردّ هذه الشبهة الملعونة من وجوه شتى بلغت إلى حد الضروريات العامة، { وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ } [غافر:٥٧] { لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ * إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالًا فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ * وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ * وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ * إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ}[يس:٧-١١].آخره، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا مُحَمَّد، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين .

****

قال رحمه الله : ((**ردّ الشبهة التي وضعها الشيطان في ترك القرآن والسنة واتباع الآراء والأهواء المتفرقة المختلفة**)) الشيطان وضع لأهل الأهواء وأرباب الباطل شبهة صدّتهم عن كتاب الله وعن سنة رسوله عليه الصلاة والسلام، وأصبح هؤلاء يروّجونها بين الناس، وكانت النتيجة إعراض هؤلاء في التلقي والأخذ عن الكتاب والسنة معرضين عن الكتاب والسنة، وأصبحوا يأخذون عن دعاة الباطل وما يوجّههم إليه أئمّة الضّلال ، وضع لهم شبهة، شبهة خبيثة قال: ((أولاً: مقدمة أولى: «لا يقرأ القرآن ولا يتدبّر القرآن إلا مجتهد». الأمر الثاني: «لا يكون الإنسان مجتهداً إلا بأن يكون موصوفاً بكذا وكذا وكذا» صفات كثيرة قال المصنّف: ((لا تكاد توجد تامة في أبي بكر وعمر)).

وأمر آخر يقولون: «لا يوجد في زماننا مجتهدين». هذه المقدمات تخلص منها بنتيجة ما هي؟ قول الله عز وجل {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ}[النساء:٨٢] أُلغي بهذه المقدمات، وأصبحوا لا يتدبّرون القرآن، ويقرؤون القرآن فقط للبركة بدون محاولة لفهمه، بل بعضهم ينبّه يقول: انتبه وأنت تقرأ لا تحاول أن تفهم، اقرأ هكذا فقط وإياك أن تفهم شيئاً منه؛ لأنّك إن فهمت شيئاً من القرآن على دينك خطر، يُخشى على دينك أن ينحرف! لكن هذا كتاب تقرأه للبركة تتبرّك بقراءته، حاول أن تقرأ مثل قراءة الأعجمي للقرآن، أما أن تفهم شيئاً منه هذا يخشى على دينك منه، بل بعضهم صرّح بأن القرآن فيه ظواهر كفرية ، أشياء تظهر منه كفرية يُخشى على الناس منها، لكن لا بد لنا من قراءته للتبرك ، لأنه كتاب مطالبون بقراءته فنقرأه للتبرك ، أما للفهم وللتدبر إياك وهذا احذر ؛ فيصبح من يقرأ القرآن منهم يقرأه لمجرّد التبرّك، وإذا قيل له: الله عز وجل نهى عن الشرك، والدليل قوله تعالى كذا، ونهى عن كذا والدليل قوله كذا. يقول: لا، لا تتكلّم في هذا، هذا للمجتهدين، هذا لأهل الاجتهاد.

والعلماء رحمهم الله يقولون: الذي جاء في القرآن وهو أمور كثيرة واضحة لكل أحد، لما يقول الله سبحانه وتعالى: {شَهْرُ رَمَضَانَ} [البقرة:١٨٥] هذه الكلمة واضحة أو غير واضحة؟ وإلا تحتاج إلى اجتهاد ومعرفة بالمقدمات التي ذكروها؟ واضحة شهر رمضان معروف عند كل أحد ، {أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ} [البقرة:١٨٥] نزول القرآن في رمضان أيضاً واضح، هناك معاني ودقائق واستنباطات لأهل الاجتهاد أما أمور واضحة ، من الذي لا يفهم قول الله تعالى {وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا } [الإسراء:٣٢] أو تحتاج إلى مجتهد مطلق؟ من الذي لا يفهم قول الله تعالى: { وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ } [الأنعام:٧٢] الأمر بإقامة الصلاة، {إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا} [النساء:١٠٣] ، {قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ } [النور:٣٠] ، تحتاج إلى مجتهد مطلق حتى يُفهم ما غضّ البصر؟! {وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ} [النور:٣١] تحتاج إلى مجتهد مطلق حتى يفهم معنى غضّ البصر؟! هذه أمور واضحة، والله عز وجلّ خاطب الناس بلسان عربي معلوم مفهوم يعلمون معناه، ففي القرآن أمور كثيرة واضحة لكل من يقرأ القرآن ممن يفهم اللسان العربي، وهناك أمور تحتاج إلى ماذا { لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ } [النساء:٨٣] ، فيه دقائق ومسائل تحتاج إلى فقه واستنباط هذه للمجتهدين نعم . أما أن يهجر القرآن ويترك تدبّر القرآن، ويقال يقرأ القرآن بمجرد البركة هذه شبهة أردتْ بكثير من الناس ، وأصبحوا معرضين عن القرآن وعن دلالاته، منشغلين بالخرافة وبالأحاديث الموضوعة، وبالقصص الواهية، وبالحكايات وبالمنامات، وبينهم كتاب الله عز وجل وسنة نبيه صلى الله عليه و سلم إلا أنهم عنهما معرضون . نسأل الله العافية . .

فهذه شبهة وضعها الشيطان لهم وأثّرت في كثير منهم، وضعها الشيطان لهم من أجل ترك القرآن والسنة واتباع الآراء والأهواء المتفرقة المختلفة، وإذا تُرك أخذ الدين والتدبّر للقرآن الكريم وسنة النبيّ صلى الله عليه و سلم من أين يأخذ الناس دينهم ؟ إذا اقتنع الناس بهذه الشبهة من أين يُؤخذ الدين؟ من العقليات ، من التجارب ، من الخرافات؛ وهذا عين الضّياع.

ماهي الشبهة؟ قال: ((**هي أن القرآن والسنة لا يعرفهما إلا المجتهد المطلق**))، هذه مقدمة أولى.

المقدمة الثانية: ((**والمجتهد هو الموصوف بكذا وكذا أوصافاً لعلّها لا توجد تامة في أبي بكر وعمر**)).

النتيجة ماهي؟ قول الله تعالى: {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ} يلغى تماماً، بل إنّ هذه الآية {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ} داخلة تحت القاعدة هذه. {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ} يقول لك: القرآن لا يفهمه إلا مجتهد ، ولا يوجد في زماننا مجتهدين، حتى هذه الآية لا تقرأها علينا، ولا تطالبنا بفهمها لأن القرآن فهمه من خصائص المجتهدين! تحت هذه الشّبهة صُدَّ النّاسُ عن دين الله.

قول الله سبحانه وتعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا} [النساء:٥٩]؛

هل هذا على بابه يُرد إلى الله والرسول تحت هذه الشبهة؟ قال العلماء: الرد إلى الله: الرد إلى كتابه، والرد إلى الرسول عليه الصلاة والسلام: الرد إلى سنته، فهل أصبح الرّد إليهما على ضوء هذه الشبهة؟! الجواب: لا، لا يُرد إلى الكتاب ولا يرد إلى السنة لأن هذا لا يكون إلا على يد مجتهد مطلق، ويقولون: لا يوجد في زماننا المجتهد المطلق ، فإذاً لاُ يرد إلى الكتاب والسنة.

قال: ((**فإن لم يكن الإنسان كذلك**)) يعني بتلك الأوصاف للمجتهد ((**فليعرِض عنهما فرضاً حتماً لاشك ولا إشكال فيه**)) هكذا يقولون، وبعضهم بمثل هذه الألفاظ يهزّ العوام ويخلخل ثوابتهم ؛ فرضاً حتماً لا شك ولا إشكال فيه ألا تتدبر القرآن ، أنت هل عندك صفات المجتهدين ؟ ما يجوز لك أن تتدبّر ، فقط اقرأ القرآن للبركة ، يصدِّق العامي ويصبح لا يقرأ القرآن إلا لمجرد التبرك . والآيات التي فيها النهي عن الشرك النهي عن الزنا كلّها لا يأخذ منها ولا يفهم معناها ولا يتلقى عنها بناء على هذه الشبهة.

قال: ((**ومن طلب**)) يعني هذا كلامهم، ((**ومن طلب الهدى منهما**)) أي من الكتاب والسنة ((**فهو إما زنديق**)) لأنه خاطر بدينه، ما هي المخاطرة بالدين؟ أن يفهم الدين من ظواهر الكتاب والسنة، هذا إما زنديق. ((**وإما مجنون**)) لماذا مجنون؟ لأجل صعوبة فهمهما، فهذا مجنون لأنه يحاول أن يفهم من القرآن ما لا يمكن أنُ يفهم من القرآن ؛ فهذا فيه نوع من الجنون أو أنه إنسان زنديق مارق من الدين ، فمثل هذا الكلام عندما يروّج على العوام كم يفعل بهم! وكم يبعدهم عن كتاب ربهم وسنة نبيّهم صلوات الله وسلامه عليه! .

والشيخ الإمام الشنقيطي رحمه الله في كتابه «أضواء البيان» عند قول الله تعالى في سورة مُحَمَّد {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا(٢٤)} عند هذه الآية وقف وقفة مطوّلة عند هذا الموضوع، وأورد هذه الشبهة وأجاب عليها إجابة موسّعة ، وأشار إلى بعض من قالها ، وتوسّع توسّعاً طويلاً في الإجابة عنها ؛ حتى إنها يعني تصلح أن تكون رسالة مفردة من المعاني العظيمة والتوسعات والتقريرات المفيدة التي ذكرها عند قوله تعالى{أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا(٢٤)} من تفسيره أضواء البيان .

ثم ختم بتسبيح الله وحمده ؛ تسبيحه: تنزيهه تبارك وتعالى عن مثل هذه الافتراءات ، وعن مثل هذا القول الباطل في كلامه وكلام رسوله عليه الصلاة والسلام . وحمداً : على نعمة التوفيق للخير والهداية له والسلامة من هذه الشرور.

قال: ((**فسبحان الله وبحمده كم بُيِّن الله سبحانه شرعاً وقدراً خلقاً وأمراً في ردّ هذه الشبهة الملعونة من وجوه شتى بلغت إلى حدّ الضروريات العامة، ولكن أكثر الناس لا يعلمون**)) ؛ يقول: هذه الشبهة زيفُها مكشوف تماما واضح في القرآن والسنة، وكم بُيّن في القرآن والسنة من الدّلائل على فساد هذا الكلام وبطلان هذا التقرير الفاسد ، بُيِّن بياناً إلى أن أصبح في حدّ الضروريات المعلومة من الدّين بالضّرورة، ولكن

استطاع الشيطان بمكره ومصائده أن يقنع أناساً بها، فأخذوا يروّجونها ويصدّون بها الناس عن كلام الله وكلام رسوله عليه الصلاة والسلام.

ثم ختم بهذه الآيات الكريمة {إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ (٨) وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (٩) وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠) إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ} [يس:٨-١١] قال ((**آخره**)) أي آخر هذا الكتاب أو هذه الرسالة.